12 ثمن الخلاص

استيقظ دونالد بلوم في وقت متأخر من صباح يوم الجمعة على صرير وأنين سفينة تمخر عباب مياه مائجة. كانت السفينة «باسيت» تنقل 151 من الناجين وبدأت عند الساعة السادسة صباحاً تبحر تجاه جزيرة سمر Samar في الفلبين حيث سيتلقى الرجال العلاج في مستشفى عسكري جديد قبل الإبحار إلى موطنهم.

ضغط بلوم على الفراش الذي رقد عليه في جناح الضباط. كان طرياً وجافاً. أين الرمث المملوء بالماء؟ هل كان يتخيل حطام السفينة وسمك القرش والجوع والحر؟ ولكنه شم بعد ذلك الزيت الذي كان ينز من جميع مسام جسمه، وأدرك أن كل ذلك قد حصل فعلاً. لا يمكن أبداً أن يكون هناك حلم بمثل هذا السوء.

أثناء الليل، جرى نقل الناجين الآخرين إلى أسرّة خفيفة نقالة من قماش القنب كانت مصفوفة على سطح السفينة ولكن كانت في مخيلة بلوم رؤى لرحلة أكثر ترفاً. وحيث إنه قادر على التجول وكان الرجال المجانين تحت السيطرة، قرّر أن الوقت قد حان أخيراً لإثبات رتبته العسكرية. لذلك، نزل إلى جناح غرف الضباط ووجد مقصورة شاغرة

واستلقى على سرير يعلوه فراش. لن يعامل هنا أشبه بأمير يلبي الطاقم جميع رغباته ونزواته، مثلما يكون على سطح السفينة. وقد لا تقدم له أطعمته المفضلة ولن يكشط جسمه ـ بل عليه أن يفعل ذلك بنفسه. ولكن ما أجمل ملمس الفراش المعتدل البرودة على لحمه المتقرح.

استيقظ بلوم من نوم استغرق عدة ساعات وتوجه للاستحمام تحت المرش، واستعان بالكاز لكشط الزيت العالق على جسمه. ثم ارتدى سروالاً قصيراً نظيفاً أعطاه إياه أحد الرجال، وتوجه إلى قاعة الجلوس لتناول طعام الإفطار، وهو أول طعام يتناوله عدا أقراص الملت وسبام منذ نصف الشطيرة التي تقيأها أثناء الغرق.

ولكن حين وصل إلى قاعة الجلوس، أحس باليأس عندما وجد أن وقت تقديم وجبة الفطور قد فاته. هل تظن البحرية أنه تخلص من عادة تناول الطعام؟ دعاه أحد الرؤساء إلى طاولته، وسأله إن كان يريد فنجان قهوة. جلس بلوم وكاد يختنق من أول رشفة. شهق وسأل: «ماذا يوجد في هذه القهوة؟».

«كحول للطوربيد ـ عيار 200. نستعمله لتزويد قذائف الطوربيد بالوقود».

هذا ما كان بلوم يحتاجه قطعاً. إنه ليس بمثل جودة الشراب الذي فقده عند غرق الطراد إنديانابولس ولكن ليس سيئاً للغاية. من يريد حبوباً للإفطار على أية حال؟ ازدرد الفنجان بسرعة خاطفة وأصبح خلال لحظات شبه فاقد الوعي مثلما عانى أحياناً في الماء. نهض بلوم وقفل عائداً إلى سريره. سينام نوماً عميقاً وهو في غاية

الاطمئنان من أن ليس بمقدور أية غواصة عدوة أن تنجو من قذائف طوربيد تستخدم وقوداً بمثل هذه القوة.

عند فجر اليوم التالي، كان بلوم لا يزال مترنحاً عندما دخلت السفينة باسيت ميناء غويان Guiuan في جزيرة سمر. نقلت صنادل الرجال إلى الشاطىء، وكان معظمهم على نقالات، ومن هناك نقلتهم سيارات إلى مستشفى في الهضاب. وفور وصولهم، نشط الأطباء والممرضون والممرضات في معالجة الجروح التي ألمت بالأجسام والوهن في الأذهان، رغم أنهم كانوا في غاية التأخر بحيث تعذر عليهم إنقاذ اثنين من الرجال من ذوي أفدح الإصابات.

كان الملازم ردمين أحد الناجين الذين كانوا بحاجة إلى قدر كبير من المعالجة. كان لا يزال غير مستقر نوعاً ما، وكان يعاني من حالة شديدة من رهاب الاحتجاز والكوابيس التي جعلته يضرب الهواء بعنف بقبضات مقصودة لعدو غير مرئي. وبما أنه أصبح خارج الماء، اشتدّ ألم يده المحترقة وكذلك النتوء في رأسه الناجم عن الضربة التي وجهها إليه الضابط توايبل بعلبة البسكويت. وعندما أوشك توايبل على الشفاء من شلله ـ ومن آثار نصف كأس الشراب الذي انتزعه من طبيبه ـ سار مترنحاً لرؤية ردمين. كان الملازم جالساً في السرير، وأخذ يزمجر حين لمس النتوء الكبير في رأسه وقال: «هناك وغد يريد قتلي. انظروا إلى هذا النتوء».

ابتسم توايبل واعترف بأنه هو الذي فعلها وقال: «لقد فقدت عقلك وكنت تريد الغوص إلى قاعة المحركات وكان علي أن أوقفك».

أحس ردمين بالذهول. لقد أنقذ توايبل حياته! قال: «آمل أن أحتفظ بهذا النتوء طيلة حياتي. لا أريد أن أنسى أبداً كم كنت محظوظاً».

بعد أخذهم قسطاً كافياً من الراحة، اقتيد ردمين وتوايبل وبلوم وضابطان آخران بلطف، الواحد تلو الآخر، داخل غرفة حيث خضع كل منهم إلى أول استجواب رسمي يجريه سلاح البحرية بشأن المأساة. كيف حصلت؟ لماذا حصلت؟ استذكر كل واحد من الرجال ما استطاع أن يستذكر، وكان كلامهم غير مترابط وكانوا يتلعثمون وهم يروون بطريقة عاطفية الأهوال المحبوسة في أذهانهم.

أنصت المستنطقون بصمت مشوب بالصدمة ـ ثم حذروا قائلين: يجب أن تبقى كل هذه المعلومات سرية إلى حين إجراء تحقيق كامل وإلى أن يقرر سلاح البحرية أن الوقت بات مؤاتياً للكشف عن المعلومات. فقد كان أمن الولايات المتحدة في يد الأقدار.

وعلى أية حال، قد ينتقد الشعب الأمريكي سلاح البحرية ويطالب بتدابير تأديبية ـ وربما إجراء تطهير في القمة. وقد حدث ذلك حين بدت نهاية الحرب في متناول اليد ويعود الفضل إلى حد كبير إلى الانتصارات التي حققها سلاح البحرية.

في الوقت الذي كان الضباط البحريون على جزيرة سمر يحاولون كبح الانتقاد الشعبي للبحرية، كان ضابط بحري على جزيرة بيليليو يدعو إلى مثل هذا الانتقاد. عقد الكابتن مكفاي مؤتمراً صحافياً في بيليليو يوم الأحد الموافق 5 آب / أغسطس، في اليوم التالي لوصول السفينة رنغنس إلى هناك وعلى متنها حمولة من الناجين.

كان الصحفيون قد وصلوا لتوهم جواً لرؤيته رغم أنه لا يمكنهم إرسال قصصهم للنشر إلى أن تعطي البحرية موافقتها على ذلك. تجمعوا في مستشفى القاعدة رقم 20، وهي المحطة الطبية للرجال الذين التقطتهم السفن رنغنس، دويل، وريجستر. لم يسبق لمكڤاي أن انتقد البحرية علناً قبل ذلك ولكنه نفّس الآن عن مشاعره التي كانت تتأجّج داخله منذ أيام.

قال: «كان من المقرّر أن نصل إلى مرسانا [في لايته] عند الساعة 11,50 لا بد لي من أن أظن أنهم بدؤوا يقلقون بحلول الظهر أو عند الساعة 13,50. إن سفينة بهذا الحجم دقيقة المواعيد أشبه بمواعيد القطارات. لا بد من أن أظن أنهم بحلول الظهر بدؤوا يتصلون عن طريق الراديو لمعرفة مكاننا أو إن كنا نواجه متاعب. وعلى حد علمي، لم يباشر بعمل أي شيء حتى يوم الخميس».

توقف مكڤاي عن الكلام قليلاً، وكانت المعاناة الجسدية والعقلية التي مر بها رجاله بادية في عينين تنتحبان كرباً وترغيان غضباً.

واصل يقول: «هناك سؤال أريد أن أوجهه بنفسي إلى الأشخاص. لماذا لم يباشر باتخاذ أيّ إجراءات في وقت أبكر؟».

طوال رحلة مكڤاي على متن السفينة رنغنس والآن في بيليليو، ظل يفكر ملياً في هذا السؤال وهو متألم، وكان يتدارسه مع زملائه الضباط، بمن فيهم الكابتن ماير على متن السفينة والكابتن يوجين أوتس Eugene Oates وهو صديق قديم التقى به في بيليليو. جلس على شرفة كوخ أوتس المعدني وسط أشجار نخيل شلتها القنابل

وحملق في البحر وكأنه في حالة تنويم مغناطيسي. وإذ هو كذلك، كان لا يزال يستطيع رؤية وجوه أفراد طاقمه منقوشة بالزبد على كل موجة متكسرة. أحب البحر على الدوام ولكن أصبح البحر الآن مجرد مقبرة جائعة شاسعة. ولم تعد أشعة الشمس الساطعة التي أعادت الحياة للعالم على الدوام ومنحته الدفء واللون والجمال لم تعد سوى مجرد ابتسامة الموت الساخرة.

كما أن لحاف الليل الذي طالما كان مصدر راحة لم يكن أقل خداعاً، ولا يزال القمر والنجوم يطلون بمرح من خلال ما أصبح الآن كفناً قاتماً.

لماذا لم يحذره أحد بوجود خطر؟ لماذا لم يعرف أحد ما بغرق السفينة؟ من المخطىء؟ سوف يلومونه بالتأكيد حتى وإن كان لا ذنب له. سيشنقونه في أشعة الشمس لكي يختبىء آخرون في الظل. ولكنه سيحاربهم بلا هوادة ـ طبعاً ضمن حدود البروتوكول والتقاليد، إذ لا يزال، رغم كل شيء، أحد رجال البحرية. ولكن أدرك مكفاي أنه لن ينعم بالطمأنينة مهما حصل. إذا خسر المعركة، ستدمر مهنته وسمعته وسوف يجلب العار على لويز وعلى والده وأبنائه. وإذا كسب، سيكون انتصاراً أجوف، فقد أصبح الكثير من أفراد طاقمه الذين هم بمثابة أبنائه في عداد الموتى، وقد كان قبطانهم.

حين علم وزير البحرية جيمس فورستال James Forrestal بمأساة الطراد إنديانابولس، لم يسعه سوى التألم لسخريات الأقدار المتأصلة في الحرب. في 6 آب / أغسطس، اليوم التالي لمؤتمر مكفاي

الصحفي، جلس على مكتبه في وزارة الدفاع (البنتاغون) وأمامه أكداس من التقارير التي تسلط على البحرية ضوءين متباينين ـ كان أحد التقارير من الكابتن البحري بارسونز على متن السفينة إينولا غاي. ويعكس التقرير مفخرة البحرية في نجاح الهجوم بالقنبلة الذرية على هيروشيما في ذلك اليوم، ولعلها الضربة الأخيرة في حرب شهدت أهم الانتصارات في التايخ البحري. ولكن لطخ تقرير آخر هذه المفخرة بشدة وهو يروي مأساة الطراد إنديانابولس والتي كانت على ما يبدو أفظع كارثة في ذلك التاريخ.

كان فورستال، في واقع الأمر، أكثر قلقاً بشأن احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة مما كان بشأن المفخرة البحرية. كانت الحرب مع الاتحاد السوفياتي، في نظره، شبه حتمية بعد هزيمة اليابان، وخشي أن توافق إدارة ترومان على خطة لتوحيد الخدمات المسلحة الثلاث ـ وهي خطة كان مقتنعاً بأنها ستضعف قدرة أمريكا على خوض حرب كهذه. شعر فورستال أن الجنرال جورج سي. مارشال George C. Marshall، رئيس أركان الجيش، لم يكن يدرك الخطر الروسي المحتمل وكان يحبذ قوة موحدة وبالتالي لم يكن ليفهم الحاجة إلى سلاح بحرية مستقل. وقد يستخدم مارشال الآن حادثة الطراد إنديانابولس ليثبت الحاجة لكبح جماح البحرية.

بالطبع، كان قائد عمليات البحرية، أميرال الأسطول كنغ King يساند فورستال ـ رغم امتعاض وزير الدفاع من وجود رجال أقوياء في مراكز القوى. فقد كان يعتبرهم عنيدين وساخرين ولم يكن يرغب في

أن يعتمدوا على قوتهم. وفي الوقت نفسه، كان يبدو مرعوباً، وشبه مذهول في حضرتهم، وغالباً ما كان يلجأ إلى إظهار «صداقة حميمة متكلفة»، وفقاً لأحد المراقبين. كان ينادي الأميرالات بصيغة تحبّب. وخلافاً للفصاحة التي تعلمها في جامعة برنستون، كان يحاكي طريقة كلامهم الفظّة والسمجة حتى حين كان يذعن لآرائهم، لا سيما آراءه الأميرال كنغ.

كان فورستال يحاول الظهور بمظهر الصرامة منذ طفولته. وعندما كان يافعاً، وصل به الأمر إلى ارتداء قفازات ملاكمة ودخل إلى حلبة الملاكمين الهواة ليثبت رجولته، وعندما انكسر أنفه ذات مرة، فضل الاحتفاظ بصورة الملاكم بدلاً من ترميم الكسر جراحياً.

قلب فورستال صفحات آخر التقارير التي وردت عن كارثة الطراد إنديانابولس. ستبقى الكارثة سراً لمدة أسبوع آخر تقريباً. وشعر على ما يبدو أن الحرب قد تنتهي بحلول ذلك الوقت إذ يكون الغبار الذري قد استقرّ وأوضح لليابانيين بجلاء أن لا جدوى من الاستمرار في المقاومة. (رغم ذلك، كان يريد أن تلقى القنبلة على غابة خارج طوكيو لإثبات قوتها قبل استخدامها في تدمير إحدى المدن. وعلى أية حال، قد تحتاج الولايات المتحدة إلى اليابان كحليف في الحرب القادمة مع روسيا، وبالتالي قد لا يتعاون اليابانيون في حال قصف مدنهم بالقنابل الذرية).

والآن، يمكن أن تجلب مأساة إنديانابولس تهديداً جديداً لأمن الأمة، على نحو غير مباشر على الأقل. ويبدو أنه كان يخشى من

أصوات تطالب بالثأر، وربما حتى بدمه، عندما يعلم الشعب الأمريكي بالمأساة.

وكانت هناك حاجة له للمساعدة في تعبئة الأمة من أجل النزاع الجديد. وعلاوة على ذلك، بدا أن الكارثة كانت في مصلحة أولئك الذين كانوا يضغطون من أجل الوحدة العسكرية. ويبدو أن فورستال قلما أحس بمثل هذا العجز والاعتماد على الآخرين من أجل الإنقاذ. كان عليه أن يطلب من الأميرال كنغ أن يساعده لإيجاد وسيلة لتبرئة اسم البحرية.

كان سرور الأميرال كنغ بتقديم المساعدة يعادل تردّد الوزير فورستال في طلبها. فالأميرال، مع غيره من أعضاء رؤساء الأركان المشتركة، هم الذين قادوا الحرب إلى حد كبير، ومارسوا أشد نفوذهم بعد أن أصبح هاري ترومان رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية. وقد انعكس زهو كنغ في وجهه المليح المتجعد، وشعر أنه من الطبيعي أن ينصت فورستال للأميرال، وبخاصة في زمن الحرب ـ وإلى جانب ذلك، بعد أن حقّق هدفه الذي سعى إليه طيلة حياته ـ وهو قيادة أقوى قوة بحرية في التاريخ ـ كان واضحاً أنه لم يكن يريد من الأجيال القادمة أن تصنفه تحت أي مدني بحري.

وهكذا، ازداد ذعره مع استمرار تدفق تقارير عن مأساة إنديانابولس إلى مكتبه في وزارة الدفاع، لا يمكن أن يكون التوقيت أسوأ من ذلك. وإن كانت الحرب توشك على الانتهاء، كانت مهمته

الأساسية التأكد من أن يحصل سلاح البحرية الذي قاده على حصة الفيل للفضل في تحقيق النصر. وها هي الكارثة الآن.

كان كنغ متفانياً لبحريته تفانياً تاماً. وشأنه شأن فورستال، لم يحبذ إلقاء القنبلة الذرية على مدينة يابانية، رغم أن السبب لم يكن تردّده في معاداة اليابان على نحو عميق للغاية وإنما شعر ببساطة أن لا داعي لاستخدام القنبلة لإرغام اليابان على الاستسلام. فقد دمر أسطوله البحرية اليابانية، وكل ما تبقى للأسطول أن يفعله الآن هو فرض الحصار على البلد وتجويعه لإرغامه على الإذعان. ولكن ها هي القنبلة قد ألقيت، وقد لا يثمن التاريخ الآن الأهمية التامة لدور سلاح البحرية في الحرب ـ حتى إنه كان يخشى على ما يبدو من أن يتذكره التاريخ بصورة أساسية بما يمكن أن تكون أكبر كارثة بحرية أمريكية على الإطلاق.

لم يشوه سجل كنغ لغاية الآن سوى مرة واحدة عندما كان ضابطاً أدنى مرتبة. فقد أنبه رجل لا يستطيع نسيانه أبداً ـ ألا وهو الأميرال تشارلز ب. مكڤاي الثاني. استطاع كنغ بالطبع تجاوز هذه النكسة ولكنه ها هو شبح أحد عائلة مكڤاي ـ ابن الأميرال يلاحقه الآن! عرّض الكابتن مكڤاي للخطر سمعة البحرية، بحرية كنغ، بفقدانه سفينته وتسبّبه في كارثة لا سابقة لها. قرّر كنغ أن لا بد من عمل شيء ما. وقد يحتاج الأمر إلى أن يتحمل الأميرال نيمتز نفسه المسؤولية في حالة الضرورة. وقد كتب كنغ إلى فورستال في 25 أيلول / سبتمبر يقول إن «المسؤولية» عن الأمر المبهم في الإبلاغ عن وصول السفن

«تقع على عاتق القائد العام للأسطول الأمريكي في المحيط الهادىء». كما بعث كنغ بتأنيب مبطن إلى نيمتز نفسه قال فيه: «أفترض أنه لا ترسل سفن أو قوافل سفن بدون مرافقة للمرور عبر مواقع معروفة بوجود غواصات عدوة ذات مهمات هجومية ولكن يبدو أن فقدان الطراد إنديانابولس مؤخراً هو أحد هذه الأمثلة».

لم يكن الأميرال نيمتز بحاجة إلى قراءة رسالة كنغ ليشعر بارتفاع الحرارة. لقد لقي نحو تسعمئة رجل تحت إمرته أفظع مصير ـ مصير قد يعزى إلى إهمال ضباطه أكثر من أن يعزى إلى أقدار الحرب. خشي على ما يبدو من أن تزيد نقمة الشعب الحرارة ضده، وبدا أن رسالة كنغ كانت تلمح بتحميله المسؤولية كاملة.

كان نيمتز رجلاً هادئاً وردي البشرة وذا شعر أشقر يميل إلى البياض. ومع أنه كان بحاراً صارماً فقد كان خفيف الظل وشغوفاً بالأزهار التي زرعها بنفسه بحماسة في حديقة منزله وخارج مقر قيادته في بيرل هاربر. ولكن إذا كانت رموز السلام قد ساعدته في التعامل مع أهوال الحرب، ما من شيء يستطيع تلطيف التقارير التي وردته عن موتى الطراد إنديانابولس. وعقب إنقاذ الناجين، مسحت السفن والطائرات منطقة الكارثة في عملية بحث ضخمة عن الجثث.

ولكن كانت معظم الجثث في حالة من التفسخ ومليئة بعضات سمك القرش، بحيث إنه بعد أن تم جلب عدد قليل منها على متن السفن، جرى فحص الجثث الباقية على الزوارق التي التقطتها وتحديد هويتها (حيثما أمكن ذلك)، ثم أغرقت فوراً بواسطة الأثقال.

وقرأ نيمتز الآن بقشعريرة نتائج حملة البحث عن الجثث. ووصف تقرير ورد من إحدى السفن وهي السفينة الحربية فرنش French حالة بعض الجثث التي عثر عليها في ذلك اليوم:

«متوسط القامة، متوسط البنية، يبدو أنه شاب نوعاً ما. في مرحلة تفسخ متقدمة جداً ويبدو أن أسماك القرش قد التهمت جزءاً منه».

«الجثة عارية فيما عدا زوج جوارب بدون علامات... الجثة مشوهة في غاية السوء بفعل سمك القرش».

«الجثة مكسوة فقد ببنطال من الدنغري (قماش قطني خشن). مشوهة بفعل سمك القرش».

«الجثة مكسوة بكامل الملابس. قميص وبنطال من الدنغري، وسروال تحتاني، وحذاء وجورب في القدم اليسرى (القدم اليمنى مفقودة)».

وإذ قرأ نيمتز التقارير، عانى مما وصفه أسوأ صدمة في مهنته العسكرية، وهي مهنة بلغت ذروتها في هذه الحرب حين قاد تجمع أكبر أسطول من السفن والطائرات والرجال. كان من المؤلم حقاً قراءة هذه التفاصيل المروعة، صفحة تلو الأخرى، التي تصف بحارته الموتى، شباب كان يمكن إنقاذهم وعودتهم إلى زوجاتهم وحبيباتهم، وآبائهم الذين قد لا يحصل معظمهم أبداً حتى على عزاء بأن يعرفوا أنه تم تحديد بقايا أحبائهم إيجابياً (تعذر أخذ بصمات

بسبب انكشاط الجلد عن الأيدي، هذا إن لم ينتزع سمك القرش الأيدي) وأن يلقوا حتفهم خلال ما يمكن أن يكون آخر أسبوع من الحرب!

كانت هناك أسئلة محيّرة يتعيّن الإجابة عليها:

لماذا غرق الطراد إنديانابولس وكيف أمكن لرجاله البقاء في الماء مدة خمسة أيام تقريباً دون أن يعرف أحد عنه؟

وبخلاف مسؤولية الكابتن مكفاي عن فقدان سفينته، هل كان هناك إهمال بيروقراطي، أو فرط ثقة أو لا مبالاة عشية النصر؟

هل أساء بعض رجاله تفسير وفهم أنظمته الداخلية، أم هل كان هناك خلل في تلك الأنظمة؟

كان نيمتز رجلاً شفوقاً. ولم يؤيد استخدام القنبلة الذرية إلاّ بعد تردّد إحساساً منه كمحارب كلاسيكي قديم أن القنبلة ليست سلاحاً مشروعاً في الحرب. إن قتل مئة ألف مدني في طرفة عين ليست الطريقة التي يريدها للقتال. غير أن «المنطق» العسكري هو الذي انتصر على الشفقة أخيراً وباتت نهاية الحرب على الأبواب. ولكنه لن يتمكن من الاحتفال. لقد مات المئات في مأساة إنديانابولس ـ من الناحية الإحصائية، بالطبع، يمثل هذا الرقم جزءاً بسيطاً من عشرات الألوف الذين سقطوا في هذه الحرب، وعدداً تافهاً مقارنة بمدينة كاملة من الناس اختفت فجأة في انفجار القنبلة فوق هيروشيما. ومع ذلك، لا يستطيع أن ينسى أبداً البحار الذي كان يرتدي جورباً غير

مخطّط أو الرجل «الشاب نوعاً ما» الذي افترسته أسماك القرش ـ دون ثمة حاجة لموتهما.

ومع ذلك، بصرف النظر عن مدى فظاعة الأخطاء التي ارتكبها بعض ضباطه، شعر أنه كان يمكن لأي رجل ارتكابها. حين كان ضابطاً شاباً، حوكم نيمتز نفسه أمام محكمة عسكرية وأنب لتسببه في جنوح سفينة على الرغم من أنه نجح، مثل كنغ، بتفان صلب، في تجاوز هذا العائق وفي الارتقاء إلى قيادة عليا، ومنحته ذكرى هذا الحادث المؤسف إحساساً بالحذر لم يسمح له بالتوصل إلى قرارات إلى أن يناقشها باستفاضة مع أركانه وقادته.

إدراكاً منه بأنه غير معصوم عن الخطأ، لم يتبجح أو يعزو لنفسه انتصاراً لم يحرزه هو. أين سيكون بدون رجال مثل الأميرالات سبراونس ووليام ف. هالسي William F. Halsey ورتشموند كيللي تيرنر Richmond Kelly Turner وجون ماكين John McCain، وبدون الكثير من الضباط الأدنى مرتبة الذين ساعدوا في بلوغ الولايات المتحدة حافة النصر ـ ومن بينهم الكابتن مكفاي؟

شعر الأميرال أنه يجب أن يكون منصفاً مع أولئك المسؤولين عن هذه المأساة أسوة بما كانت البحرية معه في الماضي ـ وآملاً أن تكون كذلك مستقبلاً. وعلى أية حال، لا يزال بالإمكان اختياره ليخلف الأميرال كنغ كرئيس للعمليات البحرية إذا لم ينعكس التحقيق الذي سيأمر بإجرائه انعكاساً خطيراً للغاية على قادته ـ أو عليه بالذات.

أراد الأميرال نيمتز إجراء التحقيق بدون تأخير كي تتمكن البحرية من كشف تفاصيل الكارثة للشعب الأمريكي حالما تضع الحرب أوزارها وحالما يتم رفع الرقابة. وهكذا، ما كادت هيروشيما تتحوّل إلى أنقاض حتى تم رفع أو نقل الناجين في بيليليو على متن المستشفى العائم ترانكيليتي Tranquility باتجاه غوام. سيتم استجواب العديد منهم هناك قبل مواصلة الرحلة إلى مواطنهم. لم ينقل رجلان على متن المستشفى لأنهما ماتا في بيليليو.

حين وضع الممرضون والممرضات على متن السفينة مرضاهم في أسرة ذات ملاءات منعشة، دخل الرائد البحري أتيبيري إلى الجناح برفقة طيار شاب خجول ومبتسم.

قال: «أيها الرجال، ألا تودون مقابلة الشخص الذي عثر عليكم؟».

صاح الناجون وهتفوا، وابتسم الملازم غوين ابتسامة عريضة. توجهوا نحوه بصعوبة وأمسكوا بيده وعانقوه والدموع تملأ أعينهم. نادراً ما أحب أشخاص غرباء تماماً أحدهم الآخر على هذا النحو من أول نظرة. كان غوين بالتأكيد أداة الله. لن يستطيع أحد أن يساوره شك في أنه لو لم يبصرهم في الوقت الذي رآهم فيه، سيكونون جميعاً الآن هياكل عظمية نهشتها أسماك القرش.

رغم السرور الذي أحس به الكابتن مكڤاي تُجاه رجاله، تساءل عما إذا كان غوين قد أدى له معروفاً حقاً. لما كان من المقرّر أن

ترسو السفينة في غوام في اليوم التالي، كان من الصعب الاعتقاد أن أكثر من أسبوع واحد قد انقضى بالكاد منذ أن أبحر الطراد إنديانابولس من غوام بعد أن حصل على تأكيدات بأنه لن يواجه أي خطر جدي. وقف الآن بمحاذاة الدرابزون وحملق في البعد الضبابي الأزرق وكأنه يحملق في عصر مفقود كان موجوداً في عمر آخر، عصر تغمره البهجة والأمل حيث وجد لويز وحيث كان سيصبح أميرالاً مثلما تمنى له والده بحماسة. يا للحياة المثالية التي كانت تنتظره... قبل أيام قليلة فقط.

نزل الناجون من السفينة في غوام يوم الثلاثاء الموافق 7 آب/أغسطس ونقلتهم السيارات إلى مستشفى القاعدة رقم 18 حيث تنقَّل الأميرال سبراونس من سرير إلى آخر وهو يعلِّق على بيجامات الرجال وسام القلب الأرجواني الذي يمنح لجرحى الحرب. وخلال فترة قصيرة، جُمع شملهم مع الرجال الذين نقلوا إلى سمر ثم نقلوا جواً إلى هنا للمشاركة في التحقيق. كان هناك عناق ودعابات وأحاديث عن العودة إلى البيت، كما كان هناك صمت، صمت رجال يريدون النسيان.

كان الكابتن مكفاي أحد هؤلاء الرجال. أراد النسيان لبضعة أيام، على الأقل حتى بدء التحقيق حين سيجبر على إعادة سرد المحنة بكاملها. وفي أحد الأيام، دنا من غايلز ماكوي في المستشفى وقال له: «تبدو قوياً إلى حدٍّ ما. هل تشعر أنك في وضع جيِّد لفعل شيء ما؟».

كان ماكوي لا يزال يبرأ من سفع شمس شديد ومن النكاز ومن إصابة في ظهره ومن تقرحات في أطرافه جراء الماء المالح، وكانت ساقاه مضمدتين، إذ انسلخ الكثير من جلده. ولكنه رغم كل ذلك قال إنه مستعد «لفعل شيء ما!».

«حسناً، ما رأيك في أن تصبح سائقي؟».

وخلال فترة قصيرة كان ماكوي ينقل الكابتن بسيارته حول الجزيرة، وأحياناً لعقد اجتماعات مع مسؤولين في البحرية وغالباً في جولات في التلال. وكان مكڤاي يطلب إلى ماكوي التوقف أحياناً، ثم ينزل من السيارة لإلقاء نظرة على الميناء والقرى الواقعة في الأسفل ويحملق حالماً في سماء مختبئة.

وفي إحدى المرات قال مكڤاي متأمِّلاً: «إنه منظر جميل، أليس كذلك؟».

ولكن لم يستطع مكڤاي أبداً التهرُّب من الحقيقة لفترة طويلة. خرج ذات مرة، من أحد الاجتماعات وركب سيارته وقال بنبرة غاضبة، موجِّهاً نصف الحديث لنفسه والنصف الآخر لماكوي: «يحاول هؤلاء الأوغاد النيل مني حقاً».

أعاده ماكوي إلى المستشفى. فالمناظر الطبيعية التي طالما فتنت الكابتن باتت الآن تذكِّره فقط بطمأنينة وهدوء لن يستطيع أن ينعم بهما بالكامل مرة أخرى. تمنَّى لو تجتمع محكمة التحقيق أخيراً وتنتهي منه.

أخذ اهتياج الكابتن مكڤاي يزداد مع مرور كل يوم تأخير. كان من المقرَّر أن تجتمع المحكمة في 9 آب/ أغسطس، ولكن في ذلك الأربعاء ألقت طائرة أمريكية قنبلة ذرية على ناغازاكي وغزا الروس منشوريا. ولم يكن من السهل على بعض أعضاء المحكمة العسكرية ترك مراكزهم في وقت تطلق فيه آخر الطلقات، وبخاصة ضابط قتال مثل نائب الأميرال تشارلز أ. لوكوود، الابن Lockwood, Jr. Charles A. الذي قاد أسطول الغواصات في المحيط الهادىء وسيرأس المحكمة. وقد علق مكڤاي في الأحداث المثيرة ولكن عدم قدرته على المشاركة في الدراما التي أخذت تتكشَّف لم يكن من شأنه سوى زيادة كآبته، إذ بعد أن خدم بلده بتفانٍ طيلة الحرب، ها هو الآن في لحظة النصر قبطاناً بلا سفينة شعر أن سمعته على وشك أن تشوه بل إنه على وشك أن يدمر، ولكن إحساسه بالذنب لم يخفِّف من قلقه، رغم معرفته ببراءته.

لاحظ بعض رجال مكڤاي أن قبطانهم الهادىء بات سريع الغضب. لقد خرج من الكارثة وهو يحب رجاله أكثر من ذي قبل ولكن قلَّ تحمُّله لأخطائهم. وأدرك دونالد بلوم هذه النزعة على نحو خاص. لقد أمضى أيامه الأولى في غوام مستريحاً يكتب رسائل ويملأ قسائم (استمارات)، تناولت إحداها ادعاءات لممتلكات شخصية فقدت في الكارثة. وبينما كان بلوم وضابطان شاطراه حجرة النوم على متن الطراد إندياناپولس يملؤون هذه الاستمارات، سأل بلوم

زميليه على نحو شبه جاد: «هل تعتقدان بأن عليَّ أن أُطالب بتعويض عن زجاجات العصير التي كانت لديَّ؟».

أجابه أحد الضابطين: «لقد هرَّبت العصير على متن السفينة».

«أجل، ثلاث زجاجات. خبَّأتها في الغرفة بين مكتبتي الزاوية تحت بعض الحقائب».

قال الضابط بانفعال: «لقد وضعت زجاجاتي هناك أيضاً. فقدت ست زجاجات».

همهم الضابط الثاني: «لقد خبَّأت زجاجاتي هناك أيضاً. صندوق كامل».

صعق بلوم. يا لها من خسارة لا تصدَّق. فقد كانت في تلك الحجرة كمية من الشراب تكفي لفتح حانة! لقد ولَّت كلها، وهو متأكِّد من أن البحرية لن تدفع لهم سنتاً واحداً. ورغم ذلك، سوف يستشير القبطان الذي استساغ شرابه أيضاً على أية حال. ولكن قرَّر أن لا جدوى في ذلك خاصة وأن مكفاي أدرجه على رأس «قائمة المغضوب عليهم».

عهدت إلى بلوم مهمة جلب البريد، وهو عمل يحتاج إلى أن يقود سيارة جيب إلى مكتب البريد وإعادة بريد معنون للمتوفين، وجلب الباقي لتوزيعه في المستشفى. لقد وجد متعة في هذا العمل لأن السيارة كانت تظل تحت تصرُّفه لدى انتهائه من العمل وكان هناك كثير من الفتيات في غوام. ورغم ما كان يشعر به من ضعف، كان

مصمِّماً على أن يعوِّض عن حظر إجازات الشاطىء الذي فرض على البحارة على متن الطراد وأن يعوِّض أيضاً عن كل الوقت الذي فقده وهو عائم في البحر. غير أن القدر ظل يقف له بالمرصاد.

في إحدى المرَّات، أثار بلوم غضب الأميرال نيمتز حين تجاوز سيارة الأميرال بسيارته الجيب.

أمر نيمتز أحد معاونيه بمعرفة ذلك «السائق الطائش»، وفي اليوم التالي استدعى مكڤاي بلوم وأخبره عن امتعاض الأميرال.

وحين غادر مكتب مكڤاي، كان بلا عمل وبدون سيارة واقتصر عمله على منطقة المستشفى، حيث وجد نفسه مرة أخرى بلا نزهة وبلا لهو. وسرعان ما تحوَّل حزنه إلى عرفان بالجميل. فقد نقل هو والرجال الأصحاء الآخرون إلى معسكر استراحة حيث أمكنهم ممارسة بعض الهوايات وتناول أطعمة فاخرة، والتنزه على شاطىء جميل يعج بالمتنزهين والمتنزهات. إنه أشبه بنادٍ ريفي حيث لا يستثنى اليهود منه. حسناً لقد عوَّض هذا عما فقد من عصير. أقسم بلوم أنه لن يكون بمقدور جميع أميرالات البحرية إخراجه من هنا. ولكن قام بعضهم بسحبه فقد استدعي ليدلي بشهادته في التحقيق.

وأخيراً، بوشر التحقيق في 13 آب/ أغسطس بستار من السرية وجو متوتر يشوبه الغضب ونفاد الصبر والإحباط. وقد انعقدت المحكمة باستعجال بحيث إن القاضي المشاور أو المدعي العام، الكابتن وليام هلبرت William Hilbert أقرَّ بأن المحكمة «باشرت

بالإجراءات دون أن تتوفَّر لها جميع المعطيات اللازمة». كما لم يكن يتوفر على ما يبدو التفاني اللازم في هذه اللحظة البطولية في التاريخ لمهمة ذات صلة بإهمال بحري لم يسبق له مثيل.

إضافة إلى الكابتن مكڤاي والضابط بلوم، جلس 41 شاهداً من قواعد شتى في المحيط الهادىء في ردهة مقر القائد العام لأسطول المحيط الهادىء في انتظار الإدلاء بشهاداتهم الواحد تلو الآخر في مكتب «قاعة المحكمة» الواسع. وكان من بين الشهود الملازم ردمين، والضابط توايبل، والأميرال ماكورمك، والملازم جبسون، والضابط سانشو، والنقيب غرانوم، والعميد جيليت، والعميد كارتر، والملازم والدرون والنقيب ناكوين.

ولعل أبرز شاهد متغيِّب كان الأميرال موراي، قائد جزر الماريانا، ورئيس ناكوين وآمر المنطقة التي غرق فيها الطراد إندياناپولس. كان أحد القضاة الثلاثة! وسوف يساعد في البت في ما إذا كان هو ورجاله قد أهملوا في إطلاع مكڤاي ـ احتمال كان له أثر ضئيل في رفع معنويات مكڤاي. وبوصفه «فريقاً معنياً» أو متهماً محتملاً، سيتمكَّن مكڤاي من الاستماع إلى كل الأدلة. وبالتالي سيجد نفسه غائصاً في مأساة في نفس اللحظة التي كان الابتهاج يغمر بقية العالم الحر.

عند الساعة السابعة من مساء يوم 15 آب/ أغسطس، أعلن الرئيس ترومان في البيت الأبيض النبأ البالغ الأهمية تحيط به بتأنق زوجته وأعضاء حكومته: «لقد استسلمت اليابان! هاجت الأمة وماجت.

رقص الناس في الشوارع، وأطلقت السيارات العنان لأبواقها، وملأت الجو قصاصات الورق الملوَّن.

عقب ساعة واحدة، قطع مذيع الراديو أعظم عطلة في ذلك العصر وأعلن إلى من يستطيع أن يسمع أو من يريد أن يسمع عن غرق سفينة. انتهى كل ذلك. والرجال في طريق العودة إلى الوطن! وهكذا، أصدرت وزارة البحرية بلاغاً مقتضباً خلواً من أية عاطفة غرق في خضم الابتهاج، ربما وفقاً لتقرير البحرية. قال البلاغ: «لقد فقدت السفينة إنديانابولس في بحر الفلبين نتيجة عمل من جانب العدو. وقد تم إبلاغ أدنى الأقارب».

قبل ذلك بوقت قصير، كان توماس دارسي بروفي الأب وزوجته في سيارتهما قرب مونريال حيث زار بروفي مكتباً فرعياً لوكالة الإعلانات التي يعمل بها. وعندما فتحا المذياع وعلما بانتهاء الحرب، لم يسعهما احتواء شدة فرحهما لأن توم الابن في طريقه إلى الوطن! كان الأب يعتبر ابنه توم مرآة له وكانت كل آماله معلقة على الشاب. كان مقدراً له أن يضاهي والده.

كان بروفي الأب بالفعل مثالاً للنجاح. فقد كان رئيس وكالة إعلانات كبرى في نيويورك تدعى كنيون واكهاردت Kenyon and Eckhardt وكان منظماً لمؤسسة التراث الأمريكي American Heritage Foundation وقيّماً على مستشفيات بارزة، ومديراً لجمعيات طبية، وعضواً في مجالس ولجان حكومية ذات نفوذ.

وشعر أن ابنه سيكتسب النفوذ نفسه وسينطلق حال عودته. أجل، توم قادم إلى المنزل وسيحظى باستقبال حافل!

وفي غمرة نوبة الجنون التي نقلها الراديو، توقف ليتصل هاتفياً بمكتبه في مونريال. دخل أحد أكشاك الهاتف العامة واتصل بالرقم.

سأل: هل من رسائل؟

أجل! توجد رسالة واحدة...

وعقب دقيقة واحدة، خرج بروفي من كشك الهاتف شاحب الوجه وعاد متثاقلاً إلى السيارة. تساءل كيف سيخبر زوجته بينما امتزجت أصوات الاحتفالات التي لا تزال تنبعث من جهاز الراديو مع الكلمات التي دوت في أذنيه بلا رحمة ـ «يؤسفنا أن نعلمكم... ـ».

في حوالى الوقت نفسه، وإلى الشرق من أوكيناوا، وقف القائد هاشيموتو على سطح الغواصة 58 - I، وتفحص الأفق رمزياً على ما يبدو وكانت الشمس تتجه نحو المغيب. ومن الغريب أنه كان مع ذلك مبتهجاً تماماً أسوة بالأمريكيين الذين كانوا يرقصون في الشوارع. فقد بات «متيقناً» خلال الأيام القليلة الأخيرة أنه أغرق سفينة واحدة على الأقل من أجل الإمبراطور. في 10 آب / أغسطس، شاهد قافلة برفقة مدمرتين. قرر هاشيموتو بتردّد أن الوقت قد حان للوفاء بوعده لرجال الكايتن الذين ما زالوا على قيد الحياة ولإرسالهم إلى الموت المجيد. قد تكون هذه آخر فرصة لهم، إذ علم أن نهاية الحرب باتت وشيكة، رغم أنه حاول إخماد الفكرة.

قبل ثلاثة أيام، أبلغه ضابط الغوص الذي يتكلم الإنكليزية النبأ الأمريكي الذي سمعه من الراديو ومفاده أن قنبلة من نوع خاص قد ألقيت على هيروشيما وأن المدينة قد دمرت بالكامل. ولكن رفض هاشيموتو الإنصات، إذ ليس من شأن أنباء كهذه سوى إحباط معنوياته ومعنويات رجاله. كان توشيو تاناكا الوحيد الذي أنصت وقد جعله النبأ يأسف أكثر من ذي قبل لعدم عثوره على الناجين من «سفينة القتال» الغارقة لكي يطلق عليهم شخصياً نيران المدافع الرشاشة في الماء. وتاق لفرصة أخرى.

بدا الآن أنه قد ينال تلك الفرصة. غمرت فرحة الانتقام قلب تاناكا وبناءً على أوامر هاشيموتو أرسل اثنين من رجال الكايتن نحو الخلود. ثم حملق هاشيموتو عبر منظار الأفق ولم يشاهد سوى بحر لا نهاية له دون أي أثر لسفينة، فهو لم يرَ بالفعل المدمرتين تغوصان في الأعماق، وخاب أمل توشيو تاناكا مرة أخرى حين قرّر هاشيموتو عدم إضاعة الوقت بحثاً عن ناجين بل قرّر الفرار على الفور من سفن أخرى في القافلة. ورغم ذلك، ظن هاشيموتو أنه لا بد وأن أغرق سفينة واحدة. وافق توشيو تاناكا لا لشيء إلاَّ لتبرير ما أحسّ به من رضا مظلم. صلى هاشيموتو من أجل روحَيْ المحاربين المغادرين، وأبحر باتجاه الوطن.

وبعد يومين، أي في 12 آب / أغسطس، شاهد هاشيموتو سفينة تجارية عدوة برفقة طراد. تبقى لديه اثنان من الطوربيدات البشرية. اختار أحدهما وانطلق الرجل نحو السفينة التجارية بعد أن بارك

هاشيموتو حظه. ولكن يبدو أن المدمرة شاهدت منظار أفق الغواصة وشنت هجوماً بقنابل الأعماق. تعرقت يدا هاشيموتو وهو يراقب ويصلي. وقع انفجار ولكن من أصاب من؟ وعندما هدأت الماء وزال الدخان، كانت السفينة التجارية قد ولت. شعر بابتهاج وتنفس الصعداء. ومرة أخرى، لم يشاهد أحد السفينة وهي تغوص، ولكن من المؤكد أن واحداً من الكايتن الشجاعين قد أصاب الهدف. بلغت معنويات الطاقم عنان السماء وشعر هاشيموتو مرة أخرى بثقة في أنه سدّد «تشو» لصاحب الجلالة الإمبراطور. لكن لم تدم الفرحة طويلاً.

في 15 آب / أغسطس، طلب ضابط الاتصالات من هاشيموتو الحضور إلى الكوة وظن هاشيموتو أنه «لم يشاهد قط رجلاً بمثل هذا الحزن».

قال له الضابط: «رجاءً. انزل لدقيقة واحدة».

تبعه هاشيموتو إلى قاعة الجلوس حيث جذبه الضابط إلى زاوية وسلمه تقريراً إخبارياً. قرأ القائد التقرير بصمت وتسمّر في مكانه. لقد استسلمت اليابان؟ أكد لنفسه أنه لا يمكن أن يكون النبأ صحيحاً، رغم أنه كان يعرف منذ مدة طويلة أن هذه اللحظة آتية لا محالة. إنها حيلة صحفية. وعلى أية حال، لم يستلم أي شيء رسمي. بذل قصارى جهده لكي يبدو هادئاً وقال: «قد يكون نبأ لإرباكنا. أتلف التقرير! وأحضر جميع البرقيات القادمة إليّ مباشرة ولا تخبر أيّاً كان».

يجب ألاَّ يصدم الطاقم الذي كان في مزاج شديد الانفعال بعد الضربة الأخيرة المفترضة. لذلك فإن نبأ الاستسلام مربك للغاية بحيث قد يرتكب أفراد الطاقم خطأ مميتاً يشكل تهديداً لهم جميعاً. عاد هاشيموتو إلى سدة القيادة وحملق ثانية في الشمس المائلة إلى الغروب، وكان يتفاعل بداخله مزيج من المشاعر ـ ارتياح، حزن، ويأس. إن ذلك التقرير صحيح بالطبع. ماذا ينبغي له أن يفعل الآن؟ هل يعود إلى اليابان ويستسلم للعدو؟ وإلاَّ إلى أي مكان آخر يذهب؟

قرّر أن لا جدوى من الفرار، سيواصل إبحاره إلى اليابان حيث يستسلم. ولكن سيبقى النبأ المروع سراً إلى أن تصل الغواصة مياه اليابان ولن تحتاج إلى الغوص مرة أخرى. بقي رجل كايتن واحد. دعه يصرخ. لا يحتاج إلى أن يموت الآن.

وبعد فترة قصيرة، جاءه ضابط الاتصالات حاملاً رسالة لاسلكية من مقر القيادة العامة في طوكيو وقرأ هاشيموتو ما قد سبق وافترضه. لقد قبلت اليابان إعلان بوتسدام الذي يطالب بالاستسلام. تضمنت الرسالة أمراً يقول: «لا تهاجموا العدو إلاَّ في حالة الدفاع عن النفس».

شعر هاشيموتو بأن عليه إخبار ضباطه على الأقل. دعاهم إلى سدة القيادة وأبلغهم النبأ وأمرهم بعدم إعلام الطاقم. أراد الضباط البكاء ولكن لم يجرؤ أحد على ذلك. بات هاشيموتو الآن قلقاً بشأن مصير الإمبراطور. هل سيدمر الأمريكيون روح اليابان؟ شعر توشيو تاناكا بالقلق بشأن البقاء الطبيعي لليابان. هل سينهب «الهمجيون»

اليابان؟ ولكن لم يساور الملاح هيروكوتو تاناكا أي شعور البتة. لم يقلق بشأن أشياء لا سيطرة له عليها. لقد بقي حياً، أليس كذلك؟ تماماً مثلما عرف أنه سيبقى حياً تحت الأمريكيين أيضاً، إذ إنه يبزهم ذكاء.

ومع ذلك، لم تنته الحرب بالنسبة إلى الكابتن مكڤاي. فقد كان يعرف أن أمامه كفاحاً مريراً ليس لإنقاذ مهنته ـ إذ إنها قد انتهت بالتأكيد ـ ولكن لتجنب عار لا يستحقه. تقبل على نحو شبه ماسوشي المسؤولية المعنوية عن المأساة التي عرف أنها ستظل تلاحقه بقية حياته؛ ولكن لماذا يجب أن يكون كبش فداء للآخرين؟ من خلال أحاديثه مع المسؤولين البحريين في الأيام القليلة الماضية، ساوره شك في أن سلاح البحرية، الذي أحبه، كان في واقع الأمر على وشك أن «يخونه» وأن يستخدمه للتغطية على الإهمال في أعلى المناصب. عليه أن يبرىء اسمه، ليس من أجله هو فحسب، وإنما من أجل والده ومن أجل لويز. ومع ذلك، تبين له في النهاية أن ليس بإمكانه أن يقاتل حقاً إذ تدرب منذ أيام أنابولس على قبول قرارات سلاح البحرية، صائبة كانت أم خاطئة. وإلاّ لن يكون جديراً بشرف الخدمة كضابط بحري.

وبصفته الشاهد الأول أمام محكمة التحقيق، وجهت إلى مكڤاي الأسئلة الواضحة.

هل أبحر الطراد إنديانابولس على نحو متعرج ليلة الكارثة!

كلا لم يفعل ذلك ولكن رداءة الطقس لم تستلزم فعل ذلك كما لم ينذره أحد بوجود أي خطر من غواصات.

هل أصدر الأمر بإخلاء السفينة؟

نعم ولكنه لم يكن متأكداً من وصول الأمر إلى العديد من الرجال، إذ تعطلت الاتصالات.

بعد أن وصف مكفاي كيف تعامل مع الأزمة، شعر بارتياح عندما لم يصدر عن أي شخص تلميح باحتمال أن يكون قد تصرف تصرفاً غير ملائم.

استدعي بعض ضباط مكفاي وأيد جميعهم شهادة مكفاي بقدر معرفتهم بالحقائق. وحين طرح سؤال بشأن «زعيم العصابة» في مجموعتهم الذي سرق حصص الطعام على الرماث، حدّد ردمين وتوايبل ـ وهما شديدا التمسك بالنظام ـ هوية الرجل وقالا إنهما يريدان أن يعاقب. ولكن بلوم أجاب إنه لا يعرف شيئاً من المسألة. وفي النهاية، أسقطت القضية ضد «زعيم العصابة» عندما نازع الاتهامات العديد من الشهود. من بوسعه القول من هو الشخص الذي كان يهلوس في ذلك الوقت؟

هل يستطيع بلوم أن يؤكد تقريراً مفاده أن شخصاً ما حاول التحرش بالرجال على متن الرماث؟

أجاب بالنفي وقال إنه لم يعرف أي شخص يمكن أن يفعل شيئاً من هذا القبيل.

قرّر بلوم أنه سيتطوع بتقديم أقل قدر ممكن من المعلومات. شك في أنهم كانوا يبحثون عن كبش فداء وعلى حد علمه كانوا يخطّطون لأن يكون هو أحد الكباش. وعلى أية حال فقد قيل له إن اليهود لا يتمتعون بشعبية كبيرة في سلاح البحرية.

إن التركيز على هذا القدر الكبير من الأسئلة عن أحداث وقعت بعد غرق الطراد غذى لدى مكفاي الشعور بأن المحكمة ربما لم تكن تحاول شنقه على أية حال وإنما ستعاقب مرتكبي الأخطاء الفاضحة الحقيقيين. في واقع الأمر، بدا له، وهو يستمع إلى شهادة الآخرين، وجود اهتمام ضئيل نسبياً بما حدث على متن السفينة. ولكن بدا جلياً أنه كان قلقاً بشأن الأميرال موراي. لماذا لم يكن يرد على الأسئلة بدلاً من توجيهها؟

استدعى الشهود العسكريون للإدلاء بشهاداتهم الواحد تلو الآخر، وأخذت كرة المسؤولة تقذف من ضابط إلى آخر وكأنها كرة قدم محشوة بالديناميت.

اعتلى منصة الشهود ضباط قيادة حدود بحر الفلبين: العميد جيليت، النقيب غرانوم، الرائد سانشو، والملازم جبسون. اتهموا القيادة العامة لأسطول المحيط الهادىء بالخطأ لأنها رغم إصدارها أمراً بعدم الإبلاغ عن وصول السفن القتالية، لم تذكر أبداً شيئاً عما يجب عمله بشأن عدم وصول تلك السفن ـ وبالتالي كان من «الطبيعي» الافتراض بعدم ضرورة الإبلاغ عنها. وفي الوقت نفسه،

أشار سانشو إلى أن مرؤوسه جبسون لم يخبره قط عن تأخر وصول الطراد إنديانابولس عن موعده المقرّر.

رد العميد كارتر التابع للقيادة العامة لأسطول المحيط الهادىء على شهود قيادة حدود بحر الفلبين. صحيح أنه لم يصدر أمر بشأن حالات عدم الوصول، ولكن كان من البديهي وجوب أن يبلغ عنها مكتب جبسون وكذلك قيادة الأميرال ماكورمك.

كما أعاد الأميرال ماكورمك من المجموعة 95,7 الكرة إلى ضباط قيادة حدود بحر الفلبين. لماذا لم يتتبعوا مسار السفينة؟ كان سيفعل ذلك بنفسه ولكن البرقية التي أبلغته بأن الطراد كان سيتدرب تحت إمرته قد فك رموزها على نحو غير صحيح بعض موظفيه ولم تسلم إليه قط. ليس خطأه بالطبع.

ادعى البراءة أيضاً ضابطا قيادة جزر الماريانا، النقيب ناكوين والملازم والدرون ولم يتم الضغط عليهما، إذ إن آمرهما الأميرال موراي كان بالطبع أحد القضاة. أكد ناكوين أنه كانت لديه معلومات عن الغواصات الأربع في مهمة هجومية وعن غرق السفينة «أندرهل»، ولكنه ظن مع ذلك أن التهديد كان «تافهاً». وظن والدرون أيضاً أن التهديد لم يكن جديراً بالذكر ـ لأن ناكوين لم يخبره أبداً عن تلك الغواصات أو عن غرق السفينة «أندرهل».

بدا أن ما من أحد على اليابسة تقاسم أية مسؤولية عن المأساة.

في 17 آب / أغسطس، بينما كان الكابتن مكفاي ينتظر معرفة

مصيره بقلق، كان القائد هاشيموتو ينتظر معرفة مصيره بنفس القدر من القلق. كان ذاهلاً عندما طافت غواصته في القاعدة الخاصة بالكايتن على جزيرة بعيداً عن كيوره. لقد حان الوقت أخيراً لمواجهة الحقيقة.

نادى من على جهاز الاتصال الداخلي: «اخلوا السطح الأسفل ـ ليتجه الجميع إلى مؤخرة الغواصة».

وعندما تجمع الطاقم على السطح العلوي عند مؤخرة الغواصة، أخرج هاشيموتو ورقة من جيب سترته وتلا بصوت مرتجف وعيون دامعة البرقية الإمبراطورية التي تعلن نهاية الحرب.

انهار بعض الرجال وبكوا، وبقي قسم آخر واجماً يحاول إخماد مشاعره؛ بينما أبدى آخرون ارتياحهم لكون المحتم قد حصل أخيراً ويمكنهم الآن الذهاب إلى ذويهم. وعندما انتهى هاشيموتو من القراءة، لم تكسر الصمت سوى بضعة تنهدات مكبوتة. وبدون لفظ أية كلمة أخرى، صعد على متن زورق بخاري نقله إلى الشاطىء ليقدم إلى ضابط أعلى مرتبة تقريراً عن الأعمال الباسلة التي قام بها رجال الكايتن الذين، باستثناء الناجي الوحيد، حالفهم الحظ بالنجاة من ذل الهزيمة.

ثم أبحر هاشيموتو إلى كيوره حيث استقبلته مجموعة من ضباط الغواصات الذين كانوا مصممين على مواصلة القتال رغم الأمر الإمبراطوري. رفض هاشيموتو الانضمام إليهم. كيف يمكن الاعتراض على رغبات الإمبراطور؟ هذا أمر لا مجال للتفكير فيه!

جادل بأنه: «لم يعد لدينا المزيد من الوقود من أجل غواصاتنا. وبالتالي كيف يمكن لنا أن نستمر؟ كلا. لقد تكلم صاحب الجلالة الإمبراطور. لا خيار لدينا. يجب أن نستسلم».

التزم الضباط الصمت وبدت الكآبة على وجوههم. أجل، وافقوا أخيراً على عدم وجود خيار.

وبعد أن قدم تقريراً إلى رئيسه، صعد هاشيموتو في سيارة جيب اقتادته إلى بيته نصف المدمر. سيخرج زوجته وأطفاله من المخبأ وسيحاول إعالتهم على أفضل نحو مستطاع إلى أن تحل لحظة العار حين يحضرون لاعتقاله وربما لإعدامه كمجرم حرب.

وعقب عدة أيام، في 20 آب / أغسطس، حين قارب التحقيق في غوام من نهايته، رفض الكابتن مكڤاي الإدلاء بمرافعة ختامية. بما أنه ليس متهماً بأي شيء، لا يوجد هناك ما ينكره. لقد جرت المحاكمة على نحو أفضل مما توقع. لم توجه إليه أية تهم ولا أسئلة عدائية. كان حتى تلك اللحظة في غاية التشاؤم ولكنه شعر الآن أن القضاة قد يلقون باللائمة على مَنْ يستحقونها ـ على أولئك الذين تقاعسوا عن معرفة مكان وجود الطراد إنديانابولس. بدا أن محاكمة عسكرية لم تعد واردة. لقد فقدت أمريكا ما يربو على سبعمئة سفينة في الحرب ولم يقدم أي من قباطنتها إلى محاكمة عسكرية. أدرك القضاة بلا ريب أنهم لو حاولوا التفرد به، سيتضح عندئذ أن سلاح البحرية يبحث عن كبش فداء.

وبالتالي تجرّأ مكفاي على الأمل بأن ما لقيه حتى تلك اللحظة من معاملة طيبة في هذه المحاكمة يبشر باتخاذ موقف متساهل تجاهه، ولم يتأثر حتى حين أعلن القاضي المشاور دون لبس: «ينبغي معاقبة أي ضابط يثبت إهماله».

ولكن حين جلس فيما بعد في غرفة المحكمة للمرة الأخيرة، صعق حين علم أن القفاز المخملي مبطن بمادة كاشطة. كان القاضي المشاور يكدس «دليلاً» فوق «دليل» ويقيم مجموعة من الاستنتاجات «الخاطئة».

- لقد حذره الملازم والدرون عن خطر الغواصات، ومع ذلك لم يتبع الكابتن مساراً متعرجاً في الليلة المميتة.
- كانت الرؤية جيدة في تلك الليلة، مما يزيد من ضرورة اتباعه مساراً متعرجاً.
- لقد تأخر في إرسال رسالة استغاثة.

جلس مكفاي هادئاً لا يصدق ما يسمعه. صرخ في نفسه في حالة من الهيجان المرير: «أخطأ القاضي المشاور في وقائع التهم الثلاث».

ورغم غضبه الشديد وامتعاضه، تعلق مكفاي بقشة من التفاؤل حين بدأت المحكمة تجزىء اللوم. فقد أوصت بما يلي:

- توجيه رسائل لوم إلى الملازم جبسون، وهي عقوبة أقل من التوبيخ، لعدم الإبلاغ عن عدم وصول إنديانابولس إلى لايته.
- إصدار أمر إلى الأميرال ماكورمك لتأديب موظفيه لعدم فك رموز

البرقية التي شرحت سبب انضمام إنديانابولس إليه.

رغم إحساس مكفاي بأن رجال جبسون وماكورمك، أيّاً كانت مسؤوليتهم، أريد منهم أن يكونوا أكباش فداء لرؤسائهم ذوي الأشرطة الذهبية، فإن القضاة، إذ أقروا بارتكاب الأشخاص الذين كانوا على اليابسة أخطاء فادحة، قد يستنتجون عدم مسؤولية القبطان عن الكارثة. ومع ذلك، أدرك احتمال أن يكون هذا الإحساس خداعاً للنفس بالتمني وأن المحكمة قد توصي بأن يوجه إليه أيضاً كتاب تأنيب مما يدمر مهنته، وهو أمر طالما توقعه.

كانت اندفاعة مكفاي بالتفاؤل قائمة على الرغبة لا على الواقع. أنصت الكابتن في حالة من الصدمة حين تلا أحد القضاة توصية المحكمة في قضيته: لا يكتفى بتوجيه كتاب تأنيب له بل ينبغي له المثول أمام محكمة عسكرية علنية لعدم كفاءته في أداء مهامه ولتعريضه أرواحاً للخطر من خلال إهماله.

انصبّ تفكير الكابتن آنذاك على شيء واحد: لماذا نجا من المحنة؟ وهو سؤال كثيراً ما طرحه على نفسه وبات الآن أداة تعذيب ماسوشية. بدا أن الأمر يتعذر تصوره. سيدرج اسمه في التاريخ بوصفه القبطان الأمريكي الوحيد الذي يمثل أمام محكمة عسكرية لفقدانه سفينته في المعركة ـ وهو ابن أحد أعظم أميرالات البلاد. كيف يمكنه الذهاب إلى بيته ومواجهة والده؟ كيف يستطيع أن يجر والده وزوجته لويز عبر جحيم محاكمة عسكرية؟

قرّر مكفاي الذهاب جواً إلى هاواي لرؤية الأميرال نيمتز لعله يفهم، بل عليه أن يفهم. ولكنه كان مطلعاً على كيفية عمل سلاح البحرية. على القادة ذوي الرتب الرفيعة حماية سمعتهم بأي ثمن؛ لن يسمح سلاح البحرية بتشويه سمعة كبار قادته. وبالتالي. قد يتعين التضحية به لما فيه مصلحة البحرية (وبالتالي مصلحة البلاد). لربما توجد عدالة داخل الظلم. وعلى أية حال، أليس هو قبطان مئات من الرجال يتعفنون في البحر الآن وقد التهمت أسماك القرش نصف أجسادهم؟

في أوائل شهر أيلول / سبتمبر، حزم جميع الناجين الباقين الملابس التي أعطيت لهم حديثاً واستعدوا للرحيل إلى الفردوس ـ إلى منازلهم. عوفي معظمهم جسدياً من محنتهم المريعة، ولكن كانت تنتاب الكثير منهم كوابيس متكررة، رغم توقفهم عن الهلوسة، وكانوا أحياناً يستيقظون متعرقي الجبين ومرتعشي الأيدي، حتى كانت لدى بعضهم نزعة للعنف.

اعتقد الملازم ردمين أنه دخل الجنة لدى إنقاذه ولكنه كثيراً ما أخذت تنتابه مثل هذه اللحظات من الجحيم وكانت تشتد بسبب رهاب الاحتجاز الذي لازمه حتى قبل الغرق. ومع ذلك، بوصفه الضابط الأعلى الناجي الذي لا زال في غوام، قرّر العودة إلى الولايات المتحدة على رأس الطاقم. كان لا يزال مجرّد ملازم ولكنه لم ينسَ أن سلاح البحرية مدين له بترقية إلى رتبة رائد، حتى وإن لم تعد لديه سفينة ليزودها بالطاقة.

عندما آن الأوان للمغادرة، استدعى ردمين خمسة من ضباط الصف معاً وأصدر إليهم الأوامر. سيكون كل منهم مسؤولاً عن حمولة كاملة تقل نحو ستين رجلاً.

قال: «ستقلنا الحافلات إلى الرصيف الممتد في البحر. تأكدوا من وجود كل واحد من الرجال. إنهم بانتظارنا في سان دييغو San Diego ويجب ألاَّ يتخلف أي شخص».

«نعم، سيدي».

وصلت الحافلات إلى الرصيف وسرعان ما صعد الرجال على متن حاملة الطائرت هولانديا Hollandia. ثم دعي الرجال من خلال مكبرات الصوت للتفقد، ولملم كل ضابط رجاله وقام بإبلاغ ردمين.

صاح أحد الضباط وهو دونالد بلوم: «لقد أحصي الجميع، سيدي».

اغتاظ ردمين. هكذا هو بلوم! ظل الملازم يفكر في إمكانية محاكمة بلوم أمام محكمة عسكرية جراء «استعارته» أحد الرماث أثناء الكارثة، حتى وإن كان هو نفسه قد وافق على الإجراء، ولو بتردّد. لم يكن ردمين يريد إحصاء كل فرد وإنما معرفة وجود كل واحد من الرجال.

«نعم، سيدي».

حالما انطلقت هولانديا في طريقها، أبلغ طبيب السفينة ردمين

بأن أحد الرجال في مجموعة بلوم لم يحضر لديه من أجل الفحص الطبي.

استدعى ردمين بلوم وسأله عن مكان الرجال.

أجابه بلوم: «سأهتم بالأمر، سيدي».

ولكن شكا الطبيب مرة أخرى، فأرسل ردمين ضابطاً هذه المرة للتحقيق. وبعد برهة، أبلغ الضابط ردمين بأن الرجل المفقود لا يزال في غوام! لقد أهمل بلوم إجراء التفقد في حافلته.

ثارت ثائرة ردمين وأبلغ قبطان السفينة بالأمر وزمجر القبطان متوعداً بمحاكمة بلوم عسكرياً.

فكّر ردمين بأن على القبطان تنفيذ وعيده ولكن هل من الحكمة أن يعود الرجال إلى منازلهم كأبطال فاتحين ـ بينما يقبع أحد القلة من الضباط الناجين في زنزانة؟

همهم القبطان وقال لا بأس حين فهم المعضلة التي تواجه ردمين. وقرّر أن يجعل بلوم حبيس غرفته لمدة عشرة أيام.

أجل، إنها فكرة حسنة. وهي على أية حال عقوبة قاسية نوعاً ما.

أبلغ ردمين بلوم بفرح لا يكاد يكتمه بأنه قد نال أخيراً ما يستحقه. لن يستطيع مغادرة غرفته لمدة عشرة أيام.

ابتسم بلوم ابتسامة عريضة. حقاً؟ لا عمل! ولا واجبات؟ يا لها من بحرية جيدة! لقد سنحت له فرصة التعويض عن النوم الضائع.

كما سيقدم له الطعام والشراب في غرفته. وإذ استلقى على سريره متكاسلاً، تساءل متى سيحضرون له وجبة العشاء.

في واقع الأمر، شعر معظم الرجال وكأنهم في رحلة استجمام بحرية. لم تسند إليهم سوى واجبات حفيفة وكان لديهم الكثير من الوقت بين الوجبات اللذيذة المذاق للاسترخاء تحت أشعة الشمس يحملون كؤوس العصير في أيديهم ويحملون منازلهم في أذهانهم. ولكن لم يتمتع أدولفو سيلايا بإجازة، إذ ما فتىء رئيسه يسند إليه أعمال رفع صناديق ثقيلة مما سبب لديه امتعاض. شك في أن تراثه المكسيكي أفرده لهذه المهمات الشاقة، إذ إن عدداً قليلاً من البيض أوكلت إليهم مهمات كهذه. على أية حال، فقد فاقمت الأعمال الثقيلة الألم في ظهره الذي أصيب لدى قفزه من السفينة.

وأخيراً، تمرّد عندما أسندت إليه مهمة عمل شاق ثالثة، وأخبر رئيسه بأنه لا يستطيع القيام بأي عمل آخر، إذ إن ظهره يؤلمه ويزداد سوءاً.

أرسله الرجل تحت الحراسة إلى طبيب السفينة الذي فحصه واستنتج أنه لا يعاني من أي شيء متجاهلاً شكاوى المريض.

وعندما استمر سيلايا في رفض العمل، حكم عليه بالبقاء في زنزانة لمدة سبعة أيام على ألاّ يقدم له سوى الخبز والماء.

أشار سيلايا إلى أنه لم يبق سوى يومين للوصول إلى سان دييغو.

إذن سيكمل المدة المحكوم بها على اليابسة.

كان سيلايا قانطاً وجلس في زنزانته يطيل التفكير واستعاد في ذاكرته الأيام الخمسة التي أمضاها في الماء مع الأموات والجرحى والمجانين. كان لا يزال يستطيع رؤية صديقه يقفز في الأمواج العاتية ويلوح له قبل أن يغرق في الأعماق. لماذا لم ينضم إلى الرجل؟ لقد بدا المحيط الشاسع وما ينطوي عليه من سلام أبدي أفضل من هذه الجدران الشاحبة التي تطبق عليه بلا هوادة وتخنقه وتحطم روحه.

وأخيراً، استطاع سيلايا أن يسمع من كوة السفينة أنغاماً موسيقية آتية من بعيد. إنها سان دييغو! وصل إلى موطنه أخيراً، تماماً كما تخيل، وهو يطوف في الماء شبه ميت. ولكن ليس تماماً كما تخيل إذ بينما سوف يستقبل الآخرون بفرقة موسيقية نحاسية، توقع أن يستقبل هو بمدافع رشاشة.

عزفت الفرقة النحاسية على رصيف سان دييغو أنغام أغنية تذكر بالحنين إلى الوطن تقول: «يا كاليفورنيا، ها قد جئنا...» وأخذ الناجون يهبطون على اللوح الخشبي المؤدي من السفينة إلى الشاطىء وذلك في العصر المشمس من يوم 26 أيلول / سبتمبر. عانقتهم الفتيات من أقاربهم وخاطبهم الصحفيون، وأحاط بهم العسكريون والمسؤولون في المدينة. ثم ركبوا سيارات جيب من أجل استعراض ظل يزحف حتى برودواي Broadway.

كانت الجماهير مخيبة للآمال لأنه لم يعط سكان سان دييغو

إشعاراً كافياً بعودة الرجال. ولكن لا يهم. بالنسبة إلى ردمين الذي جلس في السيارة الأمامية يلوح للناس بقبعته، بدا حتى التملق البسيط أشبه بحلم مستحيل وقد تحقّق. فقبل أسابيع قليلة فقط، كان في غيبوبة فعلية في وسط المحيط تفصله عن الموت ساعات وها هو الآن يلقى ترحيباً في وطنه أشبه بأميرال منتصر. قد تكون هذه الجنة على أية حال.

واصل الموكب سيره إلى معسكر إليوت Camp Elliot، وبعد بضعة أيام من إنجاز المعاملات، كان ردمين ومعظم الآخرين أحراراً في الذهاب إلى منازلهم في إجازة لمدة شهر.

حظي غايلز ماكوي باستقبال سعيد على نحو خاص. عندما وصل قطاره إلى محطة سانت لويس St. Louis، شاهد أبويه يبحثان عنه وسط الجماهير التي يعج بها الرصيف. حملقت والدته في وجهه وهو يقترب. هل هذا هو ابنها؟ تعرفت عليه بمشقة، إذ فقد ثلاثين باوناً من وزنه، وكانت تكسو رأسه الحليق طبقة من الزيت وبالتالي لم يكن يشبه غايلز. ولكنه عانق أمه بينما أخذ والده يتحسسه ليرى إن كان لا يزال «قطعة واحدة». كان أبواه قد تلقيا برقية رسمية تبلغهما بأن ولدهما لم يعان سوى من «الانغمار بالماء» كما أن غايلز نفسه قد أكد لهما هاتفياً أنه في حالة «ممتازة» ـ ولكن لا بد من التأكد من ذلك.

نشجت أمه وقالت له: «يا بني إنك هزيل ولكن لا تقلق سأسمنك».

ثم وصل إلى البيت حيث أتخم ماكوي معدته بفطيرة اليقطين. وكان مذاقها أفضل من النوع الذي تخيله وساعده على البقاء حيّاً في الماء.

لكن لن يحصل أدولفو سيلايا على فطيرة وإنما على خبز وماء. فقد نزل من السفينة كسجين تحت الحراسة ووضع في إحدى الثكنات في المعسكر. في الصباح تناول فطوراً في المطعم مع الناجين الآخرين وأحسَّ بفرحة عارمة. يبدو أنه سيطلق سراحه، إذ لا بدَّ أنهم أدركوا أخيراً أنهم ارتكبوا خطأً. ولكن اقترب منه أحد الضباط بعدئذ وأمره بالذهاب معه قائلاً: «سآخذك إلى الزنزانة».

أحسَّ سيلايا بالهلع. خمسة أيام أخرى في الزنزانة؟

«كلاَّ، سبعة أيام أخرى، إذ إن اليومين على متن السفينة لا يحتسبان. لذلك ستبدأ من جديد».

أُلقي بسيلايا في قفص مساحته ثمانية أقدام مرعبة مصنوع من شبك أسلاك قفص الدجاج حيث لا يتعدَّى غذاؤه وجبة السجن الهزيلة. أخذ جسمه الجائع والذي سبق وأوهنته المحنة في البحر يزداد وهناً تدريجياً. عندما كان في الماء، نجح في البقاء سليم العقل حتى بين المجانين، ولكن بحلول اليوم السادس في القفص أخذت صحته تعتل. أحسَّ بأنه مذلول ومخذول. لم يحاولوا حتى وضعه في زنزانة حقيقية مخصصة للكائنات البشرية. وعوضاً عن ذلك، ألقوا به في «خم دجاج» ـ وكأنه مخلوق بدون عقل أو أحاسيس، وأنه يربِّى من أجل الذبح. سوف يبرهن أن لديه أحاسيس.

انتزع بعض الأسلاك من القفص وفتلها على شكل أنشوطة ولكن عندما حاول شنق نفسه، وجد أن السقف المصنوع من الأسلاك منخفض للغاية. إنه الإذلال النهائي ـ لن يتركوه يموت بكرامة.

في اليوم التالي، أرسل سيلايا في طلب قسيس وهو في حالة من اليأس. توسَّل إليه بأن يساعده وروى له قصته.

قال له القسيس بتعاطف: «لم يبق لك سوى يوم واحد. يجب عليك أن تصمد».

ثم سرَّب لسيلايا بعض الكعك مضيفاً: «ابق ذهنك مشغولاً. فكِّر في شخص ما تحبُّه».

وفي تلك الليلة، فكَّر سيلايا بحصانه، رفيق صباه، حتى إنه تكلَّم إلى الحيوان.

سأله: «أين أنت الآن؟».

أجاب الحصان: «لا تقلق عليَّ. أنا في حالة جيِّدة. لم يأخذوني بَعْدُ إلى مصنع الغراء».

ثم تكلَّم سيلايا مع إحدى بقراته وقال لها: «لا تتحرَّكي... أريد كثيراً من الحليب، رجاءً». ما أطيب مذاق الحليب.

كان مكڤاي في منزله في واشنطن العاصمة مكتئباً بقدر كآبة سيلايا تقريباً وهو يهن في حالة من عدم اليقين. استقبلته زوجته لويز بمحبَّة وحنو كما استقبله والده أيضاً بطريقته الخاصة. شعر الابن بارتياح شديد حينما أكَّد له والده دعمه القوي له، هذا الأميرال

المتصلِّب الذهن والذي أشرف ببرودة على تدمير أكثر من رجل في سلاح البحرية لارتكابه مجرَّد أفعال مخلة طفيفة. ورغم ذلك، كان القبطان متكدِّراً على ما يبدو بنظرة الحزن، وحتى الأسى، غير الاعتيادية في عيني والده، وهما عينان قلَّما عكستا أي انفعال في الماضي.

قابل القبطان الأميرال نيمتز في بيرل هاربر وشرح له دوره البريء في الكارثة، وبدا نيمتز متعاطفاً. ولكن تذكر مكڤاي أوقاتاً كان هو نفسه متعاطفاً إزاء رجال متهمين بارتكاب جرم ما، حتى حين كان يأمر بمعاقبتهم. أخذ يؤمن بالقضاء والقدر. وكما أخبر صحيفة نيويورك تايمز New York Times: «كنت قائد السفينة وأنا مسؤول عن مصيرها. آمل أن يتخذوا قرارهم قريباً وأن يفعلوا بي ما يريدون».

في حين كان بوسع مكڤاي أحياناً تفادي تحديق والده، لم يتمكَّن من تفادي تحديق أولئك الذين فقدوا أحباءهم في المأساة، وتخيَّلهم يحملقون في وجهه، كثير منهم ليس بمجرَّد حزن وإنما بحقد رهيب. راعه قراءة الرسائل من الآباء والزوجات والحبيبات والتي كانت مكدَّسة على مكتبه وكان يرتجف كلما رنَّ جرس الهاتف، لا سيما في أيام العطل.

كانت الأصوات تردِّد صداها دون توقف في نفسه أشبه بعواء ذئاب جريحة:

«عيد ميلاد سعيد. لن يكون عيدنا سعيداً لأنك قتلت ابننا».

«لماذا بقيت حياً بينما لم يبق زوجي حياً؟».

«سيعاقبك الله على هذه الجريمة».

أرهقت هذه المهاترات أعصاب مكڤاي واضطربت روحه بالشعور بالذنب رغم أن عقله ظلَّ يتمسَّك بالبراءة. وكان يصرخ: «يا للعنة! لماذا يعاملونني هكذا؟».

حاولت لويز مؤاساته. أكَّدت له أن ما يجري أمر طبيعي. فقد كانوا شبه مجانين من الحزن والأسى وعليهم أن ينفسوا عنهما في مكانٍ ما. ساعدته على مواجهة هذه الهجمات وعلى التخفيف من معاناته. كان مكڤاي يجلس ويرد على كل محب حتى أعنفهم غضباً وأكثرهم يأساً. كتب إلى أرملة كيسي مور، ضابط السيطرة على الأضرار الذي أرسله إلى أسفل الطراد لإطفاء الحرائق، وقال لها:

> «إن حدادك هو من أجل زوجك... أما حدادي فهو على جميع الرجال. أثناء سفرنا... أخذت أعرف زوجات وأطفالاً، وأنا حزين من أجلهم. في كل تلك الأيام [في الماء] كنت أجري تفقداً في ذهني وأستطيع رؤية كل رجل بمفرده. وسأظل أراهم كل يوم في حياتي وإني على يقين من أن عقابي هو أنني سأحيا لفترة طويلة جداً».

ولكن لم يكن لديه الكثير ليقوله للمفجوعين للتخفيف من بؤسهم وغضبهم الشديدين. لم يستطع الرد على السؤال الأشد إيلاماً: لماذا حدث ما حدث؟ لعل مثوله أمام المحكمة العسكرية هو الذي سيمنحه الطمأنينة ويساعده على العثور عليها أيضاً.

لم يكن هناك أب أشد تألماً من توماس دارسي بروفي، والد توم الابن الذي ابتلعه المحيط وهو يحاول في جنونه السباحة إلى طائرة الملازم ماركس البرمائية. ولا تزال محفورة في ذهنه تلك اللحظة حين اتصل هاتفياً بمكتبه وعلم بالنبأ المأساوي ثم ترنَّح خارج كشك الهاتف على جانب الطريق وأحسَّ بأنه هو الذي قد مات. كان ابنه في غاية الذكاء والوسامة ومحبوباً. وها هو قد ولَّى الآن.

كيف مات توم؟ لكي يعرف بروفي ذلك، حاول الاتصال بأكبر عدد ممكن من الناجين. تعاطف أحد الرجال مع الأب وتكلَّم بإعجاب عن ابنه. لقد مات توم كبطل وهو يحاول مساعدة الآخرين. أحسَّ الأب بشيء من العزاء. أجل هكذا كان توم. ولكن عليه أن يعرف المزيد عن كيفية وسبب موت ابنه.

هرع إلى واشنطن من منزله في نيويورك واندفع إلى مكتب مكڤاي المؤقت في وزارة البحرية وطلب التحدُّث إلى القبطان. ولكن كان مكڤاي لايزال يعاني أشد المعاناة من الرسائل والاتصالات الهاتفية القاسية التي ترد إليه ليل نهار، لذلك شعر أن ليس بإمكانه مواجهة متهم آخر في ذلك اليوم. وعلاوة على ذلك، قد يشعر في لحظات تقلُّب مزاجه بالعزلة بل وبالتنفج.

أخبر مكڤاي بروفي أن لديه موعداً هاماً وبالتالي لا يستطيع مقابلته في ذلك الوقت. تبعه بروفي في سيارته وثارت ثائرته حين تبيَّن له أن «الموعد الهام» كان حفلة كوكتيل. أراد أن يبحث موت ابنه مع

«الرجل الذي قتله» ولكن الرجل تجنَّب مقابلته لكي لا يتأخر عن حضور حفلة!

أقسم بروفي بتدمير مكڤاي. وباشر في ذلك مستخدماً نفوذه السياسي الواسع النطاق. صبَّ جام غضبه على وزير البحرية فورستال وغيره من السلطات وحتى ضد الرئيس ترومان. أخبر مكڤاي هارلان توايبل في وقت لاحق أن بروفي، وفقاً لمصادره، قد «استخدم كل ما لديه من نفوذ» لجعل ترومان يتأكَّد من محاكمته أمام محكمة عسكرية.

أياً كان رد فعل ترومان، فقد كانت هناك آذان صاغية في العاصمة وساورت مكڤاي الشكوك عندما زوَّده توايبل هذه المرة بمعلومات. بعد شفاء توايبل في منزله من إصاباته، عُيِّن للعمل في مصنع للمدافع البحرية في واشنطن حيث التقى بأحد معارفه القدامى ـ ابن الأميرال كنغ، أرنست الابن Ernest Jr أو جُو. وكرَّر توايبل على مسامع القبطان كلمات جو ـ وهي كلمات ينفي جو كنغ اليوم تفوهه بها.

«سينال والدي من مكڤاي».

كان لدى الأميرال نيمتز رأي مختلف تبلور لدى وصول الكابتن مكڤاي إلى واشنطن في أوائل أيلول/ سبتمبر. كان مكڤاي ضابطاً جيداً ولا يستحق أن تدمر مهنته. قد يكون ارتكب أخطاء ـ ولكن من هو المعصوم عنها؟ وعلى أية حال، كان الأميرال كنغ قد أشار إلى أنه غير مسرور بدور نيمتز في مأساة الطراد إنديانابولس. أدرك نيمتز على

ما يبدو أنه كان يتعيَّن عليه أن يأمر موظفيه بتوضيح قواعد التبليغ عن عدم وصول السفن، وهو أمر أصدره متأخراً الآن. ولكن في حالة رفضه توصيات هيئة التحقيق، خشي على ما يبدو من احتمال اتهامه بمحاولة التملُّص من نصيبه من اللوم.

ومع ذلك، شعر نيمتز أنه لا يستطيع من قبيل الإنصاف أن يأمر بتقديم مكفاي إلى محاكمة عسكرية فهو لم يحاكم عسكرياً أياً من القادة الآخرين الذين فقدوا سفناً أثناء الحرب، والبعض منها في ظروف مشكوك فيها. الإهمال هو التهمة الوحيدة التي يمكن توجيهها إلى مكفاي على نحو معقول لأنه لم يأمر بأن تسلك السفينة مساراً متعرِّجاً. وحتى هذه التهمة مشكوك في نتائجها، لأن أوامر تحديد المسار التي صدرت إليه في غوام تركت مسألة التعرُّج وفقاً لتقديره هو ولهذه الأوامر الأسبقية على أوامر البحرية الدائمة التي تجعل التعرُّج إلزامياً. وبالتالي، فإن ذنبه الوحيد هو سوء التقدير، هذا إذا تبيَّن أنه مذنب. ولا يعتبر سوء التقدير عادة جرماً يستدعي محاكمة عسكرية.

كلا، لن يقدم على استثناء الآن. وهكذا في 6 أيلول/ سبتمبر، كتب نيمتز رسالة إلى المشاور العدلي العام للبحرية جاء فيها:

> لا يتفق القائد العام للأسطول الأمريكي في المحيط الهادىء مع المحكمة في توصياتها بتقديم الكابتن تشارلز ب. مكفاي الثالث، التابع لبحرية الولايات المتحدة، إلى محاكمة عسكرية علنية. كان عدم إصداره الأمر باتباع مسار متعرِّج خطأ في التقدير، ولكن ليس ذا طبيعة تشكِّل إهمالاً جسيماً. لذلك،

سيوجّه كتاب توبيخ إلى الكابتن مكفاي عوضاً عن محاكمة عسكرية علنية.

وفي الوقت نفسه، أمر نيمتز أيضاً بتوجيه كتاب توبيخ إلى الملازم جبسون بسبب «الطريقة المهملة وغير الكفوءة التي أدّى بها واجباته». كما أمر بتوجيه كتاب لوم أقل صرامة إلى رئيس جبسون، الضابط سانشو. وأبدى نيمتز ليونة أكثر فيما يخص الأميرال ماكورمك الذي سيرفع قريباً من رتبة عميد بحري إلى رتبة نائب أميرال. كان مطلوباً منه بكل بساطة، حسبما أوصت به محكمة التحقيق، تأديب موظفيه لعدم فك رموز البرقية التي أبلغت ماكورمك بسبب التحاق الطراد إندياناپولس بأسطوله.

أبدى الأميرال كنغ قلقاً حين قرأ الرسالة الخاصة بمكفاي. وشعر على ما يبدو أن نيمتز لم يدرك أن سمعة البحرية الحسنة باتت في يد الأقدار، كما لم يدرك أنه يمكن لأكبر فضيحة في تاريخ البحرية أن تترك وصمة لا تمحى على صورتها التي لا شائبة فيها. لا بدَّ من عمل شيء لحل الأزمة. فقد كان أقرباء الضحايا، وبخاصة بروفي، يطرقون جميع الأبواب في واشنطن مطالبين بمعاقبة المسؤولين عن الكارثة، وعلى رأسهم أبرز المجرمين: قبطان السفينة الذي جرؤ على البقاء حياً. ولكن إذا كان مكفاي هو سبب الكارثة، لعله يمكن أن يكون أحد الحلول كذلك.

ظن كنغ على ما يبدو أن مكفاي قد يفهم ضرورة التضحية، فهو على أية حال قد أقر بأن سفينته لم تكن تسلك مساراً متعرجاً لدى

إصابتها. كما لم يستطع كنغ تجاهل الآثار التي انطوت عليها ملاحظة أدلى بها مكڤاي بعد إنقاذه ومفادها أن أحداً ما في البحرية قد أخطأ بعدم إصدار أمر بالبحث عن الناجين، إذ من الواضح أن تهمة كهذه قد تفضي إلى مشاكل.

وعلى أية حال، قرّر كنغ اتخاذ خطوة من شأنها، إذا نجحت، تدمير الكابتن مكڤاي. وباشر في عملية التدمير في 25 أيلول / سبتمبر، حين كتب إلى وزير البحرية فورستال يقول:

> لا يمكنني الاتفاق مع رأي القائد العام لأسطول الولايات المتحدة في المحيط الهادىء القائل بأن عدم إصدار الكابتن مكڤاي أمراً باتباع مسار متعرج هو خطأ في التقدير... أوصي بأن يصدر وزير البحرية توجيهاً باتخاذ الإجراء التالي: تقديم الكابتن تشارلز ب. مكڤاي إلى المحاكمة أمام محكمة عسكرية علنية وفقاً للتوصية 1 ـ ألف الصادرة عن محكمة التحقيق في هذه القضية.

وحيث إن الوقائع المنبثقة عن الجلسات في غوام كانت هيكلية، حث كنغ على إجراء تحقيق كامل النطاق في الكارثة لإضافة بعض اللحم إلى العظام.

سيكون من المربك لو تمت تبرئة ساحة مكڤاي لمجرد أنه لم يكن للبينة وزن كاف.

تأمل الوزير فورستال ملياً في معضلته بنفس المكر الحذر الذي أبداه كملاكم. عليه تجنب فضيحة قد تهدّد فرصه في الإبقاء على

استقلالية البحرية. ولكن هل من شأن محاكمة مكڤاي عسكرياً، التي أوصى بها الأميرال كنغ، مساعدة القضية أم الإضرار بها؟ ستبرز الصحافة القضية على مدى أسابيع بحيث تحفر بلا هوادة أفدح خطأ ارتكبته البحرية في أذهان الشعب ـ وفي ذهن الرئيس ترومان كذلك.

ومن ناحية أخرى، في حال عدم إجراء محاكمة عسكرية، قد يصب الناس جام غضبهم على الأميرالات ـ وعليه شخصياً. فقد أوضح توم بروفي بالتأكيد أن عائلات الضحايا لن تهدأ إلى أن يعاقب «المذنبون».

كما لم يكن فورستال واثقاً من أن شأن «التحقيق الوافي» الذي أوصى به كنغ أيضاً خدمة هدفه ـ ماذا لو سمح بمحاكمة مكڤاي عسكرياً وبرأته الوقائع التي ستتمخض عن المحاكمة من ارتكاب إهمال خطير؟ وعلى أية حال، لا يعتقد الأميرال نيمتز أن جرم مكڤاي يقتضي محاكمته عسكرياً. ستتهم البحرية بمحاولة جعل مكڤاي كبش فداء، مما قد يعرض مستقبل البحرية لمزيد من الخطر.

ومما زاد في تعقيد معضلة فورستال تردّده في تحدي الأميرال كنغ وكبار مستشاريه العسكريين الآخرين. وأخيراً، اقترح نائب الأميرال لويس دنفليد Louis DenField، رئيس شؤون الموظفين في سلاح البحرية، على الوزير طريقة لتفادي الارتباك فيما لو أدى ظهور وقائع جديدة إلى تبرئة ساحة مكڤاي: تأجيل محاكمته إلى حين الانتهاء من التحقيق.

وافق كنغ على هذه الفكرة في 10 تشرين الثاني / نوفمبر وأقرها فورستال. بدت الفكرة أكثر الخطوات إنصافاً وأماناً. استدعى مساعده الخاص إدوارد هيدالغو Edward Hadalgo إلى مكتبه وبطريقته المميزة أومأ بإصبعه إلى مساعده قائلاً: «يا إدي، لقد قرأت عن قضية مكڤاي في الصحف. لا نحتاج إلى مثل هذه الدعاية. افعل ما يمكنك فعله لوضع حد لها. اعثر على الحقيقة. اعمل مع فورست للتخلص من هذه الإثارية».

أجابه هيدالغو بأنه سيبذل قصارى جهده.

وبعد فترة وجيزة، اجتمع هيدالغو مع نائب الأميرال فورست شيرمان Forrest Sherman، رئيس العمليات البحرية والشؤون الجوية، ومع الأميرال سي. بي. سنايدر، المفتش العام في البحرية، للتخطيط من أجل إجراء تحقيق جديد على نطاق كامل.

ولكن في ذلك اليوم بالذات، أخذ كنغ يقلب الأمور في ذهنه، إذ لعله شعر بأنه إذا برأ التحقيق ساحة مكڤاي، قد يطالب مثيرو الشغب بمعاقبة شخص آخر. وعلى أية حال، وبعد ساعات فقط من إبلاغه فورستال بتأخير محاكمة مكڤاي إلى حين انتهاء التحقيق، خط مذكرة إلى سنايدر بقلم رصاص: «أريد منك أن تعلق على جدوى تقديم قبطان إنديانابولس إلى المحاكمة الآن».

أجاب سنايدر: «يشعر الكابتن مكڤاي أنه بالنظر إلى الطريقة الشاملة التي يجري بها هذا المكتب تحقيقاته، قد تبرز حقائق إضافية

مؤاتية لقضيته. إن كنت ترغب في تقديم مكڤاي للمحاكمة قبل أن أكمل تحقيقاتي، فإنني أرى أن ثمة إمكانية تامة للقيام بذلك».

وعقب يومين، أي في 12 تشرين الثاني / نوفمبر، اتصل كنغ بفورستال الذي وافق متردداً على أن تبدأ محاكمة الكابتن مكڤاي عسكرياً دون تأخير، وذلك نظراً للظروف الاستثنائية.